المحاضرة الثانية: الدلالة الفكرية لمفهوم الأمن.

رغم شيوع استخدامات مصطلح الأمن في العلاقات الدولية إلا أنه يفتقد إلى تعريف جامع أو إلى مفهوم دقيق وصريح، حيث يجري عادة الحديث عن أمن المواطن بيد أن المقصود به غالبا هو أمن الدولة، ذلك أن أمن المواطن لا معنى له بمعزل عن المجتمع، حيث لابد من سلطة تنظم شؤون المجتمع وتضمن للمواطن أمنه وأمن ممتلكاته.

ويشرح لسان العرب (في الصفحة 140) كلمة أمن بصفة مستفيضة، ورد من ضمنها أن الأمن يعني الأمان والأمانة، وقد أمنت فأنا آمن، وآمنت غيري من الأمن والأمان، والأمن ضد الخوف، والأمانة ضد الخيانة والإيمان ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق وضده التكذيب فيقال آمن به قوم وكذّب به قوم، وأمّا أمنته فضد أخفته.

وورد أيضا أنّ الأمن هو الطمأنينة بمعنى العهد والحماية والذمّة كما هو السلم، فيقال أمن من الأسد أي سلم منه، وجاء أيضا أنّ معنى الأمن هو الوثوق، أمنه بمعنى وثق به، فيقال أمّن على ماله عند فلان تأمينا أي جعله في ضمانه.

أما في الإسلام، فقد وردت المعاني اللغوية السابقة في عدّة مواضع من القرآن الكريم، فورد مثلا معنى الاطمئنان في قوله تعالى:" قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"؛[1] وأيضا قوله تعالى: "الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ"؛[2] وكنقيض للخوف في قوله تعالى: "وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً"،[3] وكذا قوله: "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ"؛[4] كما ورد معنى الاستئمان على الحياة في قوله تعالى: "وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ".[5]

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم للدلالة على عناصر متكاملة تشكّل مفهوم الأمن، يمكن إيجازها فيما يلي:

---

[1] القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية: 64.
[2] القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية: 82.
[3] القرآن الكريم، سورة النور، الآية: 55.
[4] القرآن الكريم، سورة قريش، الآيتين: 3و4.
[5] القرآن الكريم، سورة التين، الآية: 3.

- أن الأمن تعبير عن سنة الله في خلقه.
- أن الأمن في الإسلام حالة شعورية، تتجسد بوجود الإحساس به.
- أن طبيعة الأمن كإحساس ملازمة للكائنات الحية ككل.
- أن الأمن كشعور هو اطمئنان إلى عدم حدوث مكروه في المستقبل، أيّا كان مصدره وشكله.
- أن الأمن لا ينفصل عن المكان مثلما لا ينفصل عن الزمان، واستقرار الأمن في المجتمع الإسلامي يتحقق عن طريق التكافل الاجتماعي.

أما من حيث الأصل اللاتيني، فيشير البناء الإيتيمولوجي لمصطلح الأمن إلى تناقض مثير بين جذعين: sin التي تعني بدون (أو غياب) و curra التي تعني عناية (أو علاج)، فيكون المصطلح المركب sincurra والذي يعني بدون عناية أو غياب علاج، ولكنه يشير إلى مضمون مختلف تماما.

لقد ارتبط نقاش الفكر المسيحي لمفهوم الأمن بربطه بظاهرة الحرب، فقد أوضح القديس أوغسطين Saint Augustin في كتابه "مدينة الله" أنّ الحرب حالة عرضية ستزول حين يستطيع مجتمع الإيمان أن يقهر عبدة الشيطان ويحقق السلام الأبدي، كما جزم أنّ المدينة الدنيوية لا تعرف الأمن لأنها مدينة الأهواء و الشرور، ولا يمكن إيجاد الأمن والسلم إلا في مدينة الله المحكومة بالعناية الإلهية والعدل والخير والفضيلة؛ ومدينة الله التي يتحقق فيها الأمن عند أوغسطين هي المدينة التي يعمل فيها بشريعة الله ويحاكي مجتمعها مجتمع الملائكة.

طوّرت بعد ذلك الفلسفة الدينية المسيحية مفهوم الحرب العادلة والضرورية لتفسير مفهوم الأمن، فقد رأى شيشرون Cicéron أنّ الأمن يعني غياب كل المخاطر التي تهدّد الحياة السعيدة.

ويجد مفهوم الحرب العادلة تبريراته في نصوص الكتاب المقدس، حيث يرد أنّ المسيح قال: "فوصية محبة الأعداء لا تلغى، حتّى في الحرب لا ينبغي لمقاتلينا أن يموتوا واللعنة على شفاههم، إنّ زمن المزامير قد ولّى إلى غير رجعة بمجيء الإنجيل، القوة الأنقى والأغنى والأشد هي المحبّة... لنجعل من المحبة لا من الكراهية روحا للحرب".

ثمّ تطوّر مفهوم الحرب العادلة على يد توماس الإكويني Thomas Aquinas استجابة لمطالب السياسيين في روما على إثر الغزوات الوندالية، إذ اعتبر الحروب الدفاعية مبرّرة لكونها دفاعا شرعيا عن النفس، بينما لا تكون الحروب الهجومية عادلة إلاّ بتوفر أربعة شروط:

- أن تقوم بها سلطة شرعية (عنوان عادل).

- أن تدار ضد خصم معتد (سبب عادل).
- أن تستعمل كآخر حل (خيار عادل).
- أن تدار باستقامة (احترام قواعد الحرب).

ويعزى المضمون الذي أضحى يعبّر عنه حاليا مصطلح الأمن إلى تطوّر الفلسفة الوضعية خلال القرن السابع عشر والتي ميّزت بين الأمن كشعور ذاتي والأمان كحالة موضوعية (sécurité/sûreté)، حيث يرى فابر دو فوغلاس fabre de vauglas أنّ: "الأمن شيء مغاير عن الأمان، عن التأمين وعن الثقة، لكنه باعتقادي يقترب أكثر من الثقة، وأن الأمن يعني ثقة مضمونة، أو ثقة نعتقدها مضمونة، حتّى وإن لم تكن كذلك في الواقع"؛ كما يشير ديكارت (René Descartes) في كتابه آلام الروح (Les passions de l'âme) إلى المضمون ذاته: "لمّا يكون الرجاء قويا لدرجة طرد الخوف نهائيّا، يتغيّر معناه فيصبح أمنا".

كما نجد هذا المضمون في قاموس المرادفات Dictionnaire de synonymes للكاتب لافاي B.Lafaye حيث أقام التمييز ذاته أثناء وصفه لجانب من الحروب البونيقية، إذ يقول:" تقدّم القرطاجيون بالفوضى التي تمنحها الثقة...وهنا أخطأوا، فبمجرّد دخولهم مخيّمهم، لم يتوقّعوا الهجوم عليهم، وأمنهم هذا، هو الذي جرّهم إلى الهزيمة"؛ ولأجل ذلك يرى كارلس Quarles أنّ الأمن هو مصدر هزائم الأفراد، ويرى أيضا بأنّ أفضل السبل المؤدية إلى الأمان هي عدم الشعور بالأمن.

استمرّ هذا المدلول لكلمة "الأمن" إلى غاية أواسط القرن الثامن عشر، أين أعطاه ويبستر webster تحويرا هامّا ودلالة إيجابية حيث يقول:" الأسطول البحري (une flotte) يشكّل أمنا لبريطانيا العظمى"، حيث أضحى يشير إلى حالة واضحة وصلبة تعني سلامة الحياة والممتلكات؛ والتي يمكن أن تعني الممتلكات غير المادية كالادخار الذي هو أمن من مخاطر الحياة.

أما على صعيد التضمين السياسي لمفهوم الأمن، فيمكن أن نستشفّ قطيعتين تعريفيتين، تمتدّ الأولى من النصف الثاني للقرن السابع عشر إلى بدايات القرن الثامن عشر، وهي ترتبط بفكرة أن الأمن: "هدف مشترك للأفراد والجماعات والدول"؛ وبربط الأصناف الثلاثة توصل فريدريك لايبنيز Friedrich Leibniz إلى أن: "مفهوم الدولة...أو الجمهورية كما سماها الرومان، هي مجتمع هدفه المشترك هو الأمن"، وعلى ذلك لا تكون الدولة مرجعا للأمن أو الموضوع الوحيد للأمن كما لا تكون هدفا لذاتها، بل تفهم على اعتبار أنها كيان يسعى إلى تحقيق الأمن المشترك، وهو ما جعل ماك سويني MacSweeney يرى بأن الدولة: "كانت وسيلة تحقيق تلك القيم ولم تكن موضوعها أو أساس معانيها".

ثمّ شكلت الثورة الفرنسية قطيعة ثانية بجعلها الأمن موضوعا خاصّا بالدولة بقوّة الوسائل العسكرية والدبلوماسية، وهو الطرح الذي دافع عنه آدم سميث Adam Smith وتوماس هوبز Thomas Hobbs ، حيث رأى سميث أن الدولة هي الفاعل الرئيسي المكلّف بحماية المجتمع عبر جيشها من العنف والغزو الخارجي، وأن حرية الأفراد تخضع لأمن الدولة.

ومع تطوّر نظرية العقد الاجتماعي، أصبحت الدولة المحتكر الوحيد للفعل الأمني L'action sécuritaire، حيث يرى جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau أن: "الأمن أصبح المشكل الذي يجب على مؤسسات الدولة إيجاد حل له".

ويتحدد الأمن بمفهومه العام في عنصرين أساسين:

- تحقيق متطلبات التنمية الشاملة: الاجتماعية والاقتصادية.
- ضمان مقدرة وحرية الدولة في اتخاذ قرارها السياسي.

وهكذا كان الاتجاه إلى توسيع مفهوم الأمن نتيجة عدة عوامل، منها ما أفرزته الحرب العالمية الثانية، وكذا التطورات الدولية التي أعقبتها، وبالموازاة أيضا مع تطور وظيفة الدولة الحديثة، إذ يمكن إجمال هذه العوامل في ثلاث حقائق:

- تنامي حدة الصراع الدولي إبان الحرب الباردة وبروز ظاهرة الاستقطاب الدولي.
- التطور التكنولوجي والعلمي والتقني وما أفرزه من تقدم هائل في وسائل الاتصال وتطوير للصناعة الحربية لا سيما أسلحة الدمار الشامل.
- ارتباط الأمن بمظاهر جديدة، نتيجة ظهور مبادئ وسلوكات دولية جديدة وتوسع المجالات الكابحة لسيادة الدول.

إذا كان مفهوم الأمن ينطلق بتطابق مع القوة العسكرية في إطاره الضيق، فإن بروز المظاهر السابقة الذكر التي تؤثر فيه وتتأثر به، جعلته يتحوّل إلى المفاهيم السياسية ثم إلى الأمن العام الذي يشمل مختلف الظواهر الاجتماعية، الشيء الذي أبان عن مفهوم الأمن الشامل الذي بالإضافة إلى النطاقات السابقة، يرتبط بالثقافة والاقتصاد والطاقة والقوة البشرية والبيئة.